

## أسلوب كل من سيويه نحويًا وعبد القاهر بلاغياً في تعاملهما مع السماع البليغ المخالف للقياس

محمد ابراهيم خليفه شوشترى\*

أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الشهيد بهشتي، طهران

تأريخ استلام البحث: ١٣٩٥/٠٧/٠١ تأريخ قبول البحث: ١٣٩٥/٠٩/٣٠

### الملخص

إن علماء النحو بعد أن أمضوا عملية تععيد اللغة التي نزل بها القرآن المجيد، أو كادوا، واجهوا أساليب فضيحة  
ظاهرها مخالف للقواعد التي استنبطوها من الكلام المطرد، فانقسموا في كيفية تعاملهم مع هذه الأساليب قسمين:  
قسم اختار أسهل الطرق إذ نسب إليها الشذوذ عن قياس المطرد ولم يجز القياس عليها؛ لأنه لم يعطها حقها من  
التأمل والتدقيق، فأراح نفسه من كل ذلك. وقسم: اتخذ الاخلاص أساساً لعمله، فعالج تلك الأساليب معالجة  
معنوية ذوقية أخذاً بنظر الاعتبار ما تشتمل عليه من معان بلاغية غير مهتم، ولا آبه بما تفرضه قواعد المطرد؛ لأنه  
لم يحتكم إليه؛ لأن اللغة قبل أن تصل إليه قد مرت بمراحل تطويرية؛ ولأنها كائن حي، فهي لذلك تشتمل على  
أساليب متباينة. والمهم أن سيويه في بحوثه النحوية كان مثلاً لهذا القسم، وكذلك كان عبد القاهر الجرجاني في  
بحوثه البلاغية الذوقية العميقة قدوة لمن جاء بعده من علماء البلاغة. وهذا المقال يحاول باختصار دراسة أسلوبية  
سيويه نحويًا، وأسلوبية عبد القاهر بلاغيًا في تعاملهما مع السماع البليغ المخالف لقياس المطرد.

الكلمات الرئيسية: سيويه؛ عبد القاهر؛ السماع؛ القياس.

## ١. المقدمة

إنَّ اللغة كائن حيّ متطور متحول لا يثبت على حال، ولا يستقر على منوال، ولا شك أنَّ اللغة العربية قد مرّت بمراحل تطورية انتهت بها إلى ما وصلت إليه قبل نزول القرآن الكريم. إذ وصلت إلى قمة البلاغة والفصاحة، لذلك تحدي القرآن المعجز أربابها وفرسان بلاغتها والمهم أنَّ علماء النحو الأوائل حين جمعوا اللغة من أفواه العرب الفصحاء، وجدوا قسماً كبيراً منها متفق على حالة واحدة، فسموه المطرد من الكلام، وحوّلوه إلى قواعد وهم محقّقون في ذلك. ثم واجهوا أساليب أخرى فصيحة لا تتفق مع المطرد، فكان المفروض أن يتخذوا أسلوباً ومنهجاً موحداً في التعامل مع هذه الأساليب، وأن يعطوها حقّها من التأمل والتذوق لتأخذ مكانتها اللائقة بها في علم النحو لكن العلماء صاروا فريقين: فريق نسب الشذوذ إليها لمخالفتها لقواعد المطرد وأراح نفسه من عناء التحقيق، وفريق آلا على نفسه أن ينجز على أحسن وجه ممكن وظيفته ومهمته كعالم محقق ليبرئ ذمته وهذا المقال يهدف إلى دراسة اسلوبية علمين من علماء اللغة: أحدهما عالم نحوي، وهو سيوييه، والآخر عالم بلاغي، هو عبد القاهر الجرجاني في تعاملهما مع السماع الفصيح المخالف لقواعد المطرد، وسيشار إلى أنَّ المبرد وهو من الفريق الأول، كان يخطئ سيوييه في أسلوبيته هذه.

## و الأسئلة المطروحة هي

- كيف كان أسلوبية سيوييه في تعامله مع النصوص الفصيحة المخالفة لقواعد المطرد؟ هل كان يجعل للقواعد ميزاناً لردّها أو كان يعطيها حقّها من التأمل والتذوق، ثم يصدر حكمه؟
- هل اعترض بعض علماء النحو على سيوييه في منهجه هذا؟
- هل كان سيوييه يرى المعاني البلاغية أثراً ودوراً وظيفياً في الاستشهاد النحوي؟
- هل كان تعامل عبد القاهر مع النصوص البلاغية المخالفة لقواعد المطرد شبيهاً بتعامل سيوييه؟

## الدراسات السابقة

توجد دراسات سابقة منذ أواخر القرن الثالث الهجري أتت آراء سيوييه التي خطّأه فيها أبو العباس المبرد الذي ألف كتاباً رد فيه بعض آراء سيوييه أسماه (الرد على السيوييه). وقد أنبرى أحمد بن محمد بن ولّاد المتوفي سنة (٣٣٢هـ) للانتصار لسيوييه، فألف كتاباً سمّاه (الانتصار لسيوييه على المبرد) رد فيه بالأدلة العلمية المسائل التي أخذها على سيوييه باستثناء مسألتين (المبرد ١٣٩٩هـ: ج ١، ١٠٢). وروى ابن جنّي

عن أستاذه أبي على الفارسي عن أبي بكر بن سراج أن أبا العباس المبرد كان يعتذر من أخذه تلك المسائل على سيبويه، ويقول: «هذا شيء كنا رأينا في أيام الحداثة، فأما الآن فلا» (ابن جني، ١٩٥٢م، ج ١: ٢٨٧).  
يؤيد ذلك أن المبرد كان يعظم كتاب سيبويه، ويسميه البحر (السيرافي، ١٩٦٣: ٥٠).

لكنّ هذه الدراسات اقتصرت على تأييد آراء سيبويه، ورد كلام المبرد ولم تذكر أنّ سيبويه كان يعطي الموارد البلاغية التي اشتمل عليها النص الفصيح الأهمية اللازمة في التقعيد، وأنه كان يستعين بها وبالذوق الأدبي على فهم المعنى المراد ليكون حكمه صحيحاً سليماً كما لم تذكر هذه الدراسات أن عبد القاهر كان ينهج نهج سيبويه في بحوثه البلاغية، أما هذه المقالة فقد تكلفت بكل ذلك مستعينة بالشواهد الشعرية.

تجدر الإشارة إلى أن العلماء الذين يدرسون النصوص الأدبية ليبنوا ارتباطها بالقواعد، وضعوها استناداً للمطرد من الكلام: هم بحاجة ماسة جداً إلى أن يكونوا متمتعين بالذوق الأدبي لأنّ تذوق النصوص الأدبية بلاغياً هو أكبر معين لهم على فهم المعنى المراد، ولا شك أن فهم المعنى المقصود يسهل إلى حد كبير جداً عملية ربط النص بالقاعدة، سواء أكانت القاعدة نحوية أم كانت بلاغية، ويجب أن نعلم أن تذوق النص الأدبي يستلزم الدقة والتأمل والتعمق فيه، لذلك قد يحصل اختلاف بين من تذوق النص وتعمق فيه، ففهم المعنى المراد، وبين من لم يتذوقه مكتفياً بالفهم السطحي الظاهري، ولم يكلف نفسه عناء الوصول إلى المعنى المراد.

إنّ هذه المقالة تحاول بيان أنّ سيبويه وعبد القاهر الجرجاني كانا يتذوقان النص الأدبي ليسهل عليهما تعيين القاعدة التي تربط به. أما إذا انتهت بمحاولة التذوق إلى أنّ النص الفصيح المدروس مخالف للقاعدة المرتبطة به، فإنهما يجيزانه، ويعتبرانه قاعدة مستقلة، ولا يلزمان أنفسهما إلزاماً تعسفياً بالقاعدة. وفهل كان عبد القاهر متأثراً في ذلك بسيبويه؟ وأبدأ بدراسة موقف سيبويه من خلال تعامله مع شاهد شعري فصيح، ثم أردفها بدراسة موقف عبد القاهر الجرجاني من خلال تعامله بلاغياً مع شاهدين شعريين بليغين:

### أسلوبية سيبويه في تعامله مع السماع البليغ المخالف للقياس:

قال سيبويه: «و أجزوا اسم الفاعل، إذا أرادوا أن يبألغوا في الأمر، مجراه إذا كان على بناء (فاعل)، لأنه يريد به ما أراد بفاعل من ايقاع الفعل إلاّ أنّه يريد أن يُحدّث عن المبالغة، فما هو الأصل الذي عليه أكثر هذا المعنى: (فَعولٌ، وفَعَّالٌ، ومفعَلٌ، وفَعِّلٌ) وقد جاء (فَعِّلٌ) (كرحيم

وعليم وقدير وسميع وبصير) يجوز فيهن ما جاز في (فاعل) من التقدم والتأخير والأضمار والأظهار... ومنه قول ساعدة بن جُوَيْبَةَ<sup>١</sup>

حتى شأها كليلٌ موهناً عملاً      باتت طراباً وبات الليل لم ينم

و منه قديرٌ ورحيمٌ وعليمٌ، لأنه يريد المبالغة في الفعل» (سيبويه، ١٩٧٧م: ج ١: ١١٠ و ١١٤).

إنَّ سيبويه في نضه المتقدم استشهد على إعمال بعض أوزان المبالغة، و(فَعِل) و(فَعِيل) وإعمال هذه الأوزان مخالف للقياس الذي استنبطه علماء النحو لعمل اسم الفاعل وسيوضح لنا ذلك بعد قليل. لكن الأمر الذي أثار حفيظة أبي العباس المبرد فانبرى للرد على سيبويه بل اعتبره بعض علماء النحو غلطاً من سيبويه، (الإمام الشنتمري، ٢٠٠٥ م، ص ١٠٤)، إنما هو استشهاده ببيت ساعدة بن جُوَيْبَةَ على جواز إعمال الصفة المشبهة (كليل) في (موهناً) وإعتباره مفعولاً به لها خلافاً للقاعدة التي تمنع عمل الصفة المشبهة في المفعول به.

### شرح المسألة

إنَّ الأصل والقياس الذي اعتمده علماء النحو جميعاً لاسيما امامهم سيبويه واستاذه الخليل بن أحمد إنما هو أن لا يعمل المشابه من المشتقات الجارية مجرى الفعل إلا ما أشبه منها فعله الذي اتفق معه في الزمان، وأن يكون وجه الشبه الاتفاق في عدد الحروف والحركات والسكنات، لذلك عمل اسم الفاعل الذي زمانه حال أو استقبال؛ لأنَّه أشبه الفعل الذي اتفق معه في الزمان وهو الفعل المضارع؛ ووجه الشبه تساوي حروفهما، واتفاقهما في الحركات والسكنات نحو (ضَارِبٌ) و(يَضْرِبُ) ولذلك - أيضاً لم يعمل اسم الفاعل الذي زمانه الماضي؛ لأنه لم يشبه الفعل الماضي الذي اتفق معه في الزمن، أي: لم يشبهه في عدد الحروف، وتوافق الحركات والسكنات نحو: (ضَارِبٌ) و(ضَرَبَ).

١- البيت في ديوان الهذليين: ج ١ ص ١٩٨، وكتاب سيبويه: ج ١، ص ١١٠، والمقتضب للمبرد: ج ٢ ص ١١٤، وشرح كتاب سيبويه للسيرافي ج ١، ص ٤٤١، والانتصار لسيبويه لابن وكاد ص ١٩١، وشرح التسهيل لابن مالك ج ٣، ص ٨٠ وشرح أبيات سيبويه للنحاس ٩٠، والمنصف لابن جنى ج ٣، ص ٧٦ وشرح مفصل لابن يعيش ج ٦، ص ٧٢ وشرح الجمل لابن عصفور ج ٢، ص ٥٦٢، وشرح عيون كتاب سيبويه للمجريطي ص ٨٠، والنكت للشنتمري ج ١، ص ١٠٤، ومغنى اللبيب لابن هشام ج ٢، ص ٤٣٥، والمنصف للشمني ج ٢، ص ١٤٧، وشرح الكافية للرضي ج ٣، ص ٤٢١، وشرح التصريح على التوضيح ج ٢، ص ٦٨.

لكن السماع ورد بإعمال أوزان تدل على المبالغة مع أنها لم تشبه المضارع في عدد الحروف وتوافق الحركات والسكنات، وأهم هذه الأوزان ما يلي:

### ١. فعول: لقد ورد السماع الفصيح باعمال ضروب في قول أبي طالب (ع)

ضَرُوبٌ بِنَصْلِ السِّيفِ سُوِّقَ سِمَانِهَا إِذَا عَادِمُوا زَادًا فَإِنَّكَ عَاقِرٌ

(سيويه: ١٩٧٧م: ج ١، ص ١١١).

فكلمة (سوق) جمع (ساق)، وهي مفعول به ل (ضروب) الدال على المبالغة والذي لم يشبه فعله المضارع، فعمل خلافاً للقياس.

### ٢. فَعَل: لقد ورد السماع الفصيح باعمال (حَذِرَ) و(مَرَّقَ) وفي قول زيد الخيل:

أَتَانِي أَنَّهُمْ مَرَّقُونَ عَرَضِي جِحَاشُ الْكِرْمَلِينَ كُفْمٌ قَدِيدٌ

(ابن مالك، ١٩٩٠م: ج ٣: ٨١) فكلمة عرضي مفعول به ل (مَرَّقُونَ)، وهو جمع مذكر سالم ل (مَرَّقَ) الدال على المبالغة، فعمل النصب، ولم يشبه مضارعه خلافاً للقياس.

### ٣. فَعِيل: وجاء السماع الفصيح بإعمال (فَعِيل) أيضاً فقد روي ابن مالك عن بعض

الثقات قول العرب: (إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ دَعَاءٌ مِنْ دَعَاءِ)، (ابن مالك، ١٩٩٠م، ج ٣: ٨١). وروي "أبو الحسن اللحياني في نوادره أَنَّ بَعْضَ الْعَرَبِ يَقُولُ فِي صِفَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: (هُوَ سَمِيعٌ قَوْلِكَ وَقَوْلَ غَيْرِكَ)"، (البغدادي ١٩٨٨م، ج ٦: ٣٢٥)، فَعَمِلَ (سَمِيع) النصب فيما بعده، واستشهد سيويه من قبل بيت ساعدة بن جؤيئة. فهذه الأوزان عملت مع مخالفتها للقياس المذكور، وقد استدل مخالفو سيويه بهذه المخالفة على عدم جواز إعمالها.

و الذي أراه أنه يضاف إلى هذه المخالفة للقياس مخالفتان أخريان للقياس ارتكبهما سيويه نصرَةً للسماع البليغ، وقد كان مجموع هذه المخالفات سبب إثارة الضجة الإعتراضية التي قادها أبو العباس المبرد على سيويه، لذلك انبرى للرد عليه.

وهاتان المخالفتان اللتان زادتا الطين بلةً من وجهة نظر العلماء الذين قيدوا أنفسهم بالقواعد والأقيسة، واعتبروها الحُكْمَ الفصل، هما التاليتان:

الأولى: أن لفظ (كليل) صفة مشبهة مشتق من الفعل اللازم (كَلَّ) بمعنى (تعب)، لذلك فالقياس يقضى بعدم جواز إعمال (كليل) وجميع الصفات المشبهة؛ لأنها مشتقة من أفعال لازمة. هذا أولاً وثانياً أن بناء (فَعِيل) موضوع للذات والهئية التي يكون الإنسان عليها كقولك (هذا رجلٌ كريمٌ وظريفٌ) إذا كان ذلك

كالتبيعة، ولم يوضع لك يجري مجرى الفعل (ابن يعيش: بلا تا: ج ٦: ٧٢).

والثانية: أن لفظ (موهن) ظرف زمان، أي إنه مفعول فيه؛ لأنه يطلق على وقت معين من الليل، لذلك فقياس المفعول فيه يقضى بعدم جواز أن يقع مفعولاً به.

لكن الذي يبدو أن سيويه اعتبر لفظ (موهن) ظرفاً متصرفاً، والظرف المتصرف يجوز أن يخرج عن الظرفية، فيكون مبتدأ وخبراً ومفعولاً، نحو قولك: (يوم الجمعة عطلة المسلمين) و(هذا يومٌ جميل).

قال المبرد معترضاً على سيويه: «فأما ما كان على (فعل) نحو: (رحيم) و(عليم)، فقد أجاز سيويه النصب فيه، ولا أراه جائزاً، وذلك أن فعلاً إنما هو اسم الفاعل من الفعل الذي لا يتعدى، فما خرج اليه من غير ذلك الفعل فمضارع له ملحق به، والفعل الذي هو لفعيل في الأصل إنما هو ما كان على (فعل) نحو: (كرم) فهو (كريم)، و(شرف) فهو (شريف) و(ظرف) فهو (ظريف) فما خرج اليه من باب (علم) و(شهد) و(رحم) فهو ملحق بمن فان قلت: (راحم) وعالم وشاهد)، فهذا اسم الفاعل الذي يراد به الفعل، واحتج سيويه بقول الشاعر:

حتى شأها كليل موهناً عملاً      باتت طراباً وبات الليل لم ينم

فجعل البيت موضوعاً من (فعل) و(فعل) بقوله: (علم) و(كليل). وليس هذا بحجة في واحد منهما؛ لأن (موهن) ظرف، وليس بمفعول، والظرف إنما يعمل فيه معنى الفعل كعمل الفعل، كان الفعل متعدياً أو غير متعد» (المبرد، ١٣٩٩هـ: ج ٢: ١١٣-١١٤).

### شرح نص أبي العباس المبرد

إن المبرد في نضه المتقدم اعتبر جميع الأسماء التي جاءت على وزن (فعل)، اعتبرها لازمة غير عاملة فلا يجوز أن تنصب مفعولاً به سواء أخذت من أفعال لازمة نحو: (كل)، فهو (كليل) و(شرف) فهو (شريف)، أم أخذت من أفعال متعدية نحو: (علم) فهو (عليم) و(رحم) فهو (رحيم) لأنه قاس (شاهد) و(عليم) و(رحيم) ونحوها على الصفة المشبهة المشتقة من فعل لازم نحو: (كريم) و(شريف)، فاعتبرها لازمة غير عاملة، وإن أخذت من أفعال متعدية، مستنداً في ذلك إلى قياس شبه استنبطه هو، وهذا هو معنى قوله " والفعل الذي هو ل (فعل) في الأصل إنما هو ما كان على (فعل)، نحو: (كرم) فهو (كريم)، و(شرف) فهو (شريف)، و(ظرف) فهو (ظريف) فما خرج اليه من باب (علم) و(شهد) و(رحم) فهو ملحق به"

واضح أنَّ المبرد يخضع السماع البليغ للقواعد غير آبهٍ ببلاغته. أما سيويه فقد اعتبر ما اشتق من الأفعال المتعدية على وزن (فعل) متعدياً، نحو: (عليم) و(رحيم) و(شهيد)، مستدلاً بالسماع الفصيح، لكنه لم يقف عند هذا الحد من عدم اعتبار القياس في قبال السماع الفصيح، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، فاعتبر ما اشتق من الفعل اللازم على وزن (فعل) متعدياً إذا استوجبته بلاغة النص دالاً على المبالغة فالبون بعيد بين هذين العالمين.

والمهم أنَّ أبا العباس المبرد بقياسه هذا حاول إبطال استشهاد سيويه بما استشهد به من الشعر الفصيح على عمل هذه الأوزان. ومنها (فعل) الدالة على المبالغة، وبعد أن فرغ من ذلك عكف على إبطال استشهاد بيت ساعدة بن جؤية، على عمل (كليل) وهو (فعل)؛ لأنه لازم لا يعمل، لأنه فعله لازم هو (كل) لذلك فلفظ (موهن) ظرف زمان مفعول فيه، وهو باق على أصله، وليس مفعولاً به لـ (كليل). وهذا هو معنى قوله: (و احتج سيويه بقول الشاعر...).

و النتيجة أنَّ الاختلاف بين هذين العالمين يتلخص في الأمور التالية:

الأمر الأول: لفظ (موهن) إنَّ أبا العباس المبرد اعتبر لفظ (موهن) ظرف زمان لأنه يطلق على وقت معين من الليل، وإذ كان كذلك، فلا يقع مفعولاً به. أما سيويه، فقد اعتبر لفظ (موهن) ظرفاً متصرفاً خارجاً عن الظرفية في الشاهد المذكور؛ لأنَّ الظرف المتصرف يخرج عن الظرفية ويقع مبتدأً نحو: (يوم الجمعة عطلة المسلمين)، وخبراً نحو: (هذا يوم سعيد) ومفعولاً به، نحو لفظ (موهن) في بيت ساعدة بن جؤية الذي استشهد به سيويه.

الأمر الثاني: وزن (فعل): اعتبر المبرد لازماً لا يتعدى أبداً أما سيويه، فقد اعتبره متعدياً إذا دلَّ على المبالغة.

الشرح: يبدو أنَّ وزن (فعل) في اللغة العربية له ثلاثة

## أساليب

الأسلوب الأول: استعمال وزن (فعل) صفة مشبة مأخوذة من فعل لازم غير دالة على المبالغة،

نحو: ظُرفَ فهو ظريفٌ، ونُبلَ - فهو نبيلٌ، شُرُفَ فهو شريفٌ، وجُمِّلَ - فهو جميلٌ

الأسلوب الثاني: استعمال وزن (فعل) مأخوذةً من فعل متعد، نحو عَلِمَ فهو عليم، وِرِحِمَ فهو

رحيم، وشَهَدَ فهو شهيد، وسمِعَ فهو سميع، وفيه رأيان:

الأول: رأى سيويه: لقد ذهب سيويه إلى أنَّ هذا الوزن متعد كفعله، فهو إذن يدل على المبالغة.

قال سيويوه: "و أجزوا اسم الفاعل إذا أرادوا أن يبالغوا في الأمر، مجراه إذا كان على بناء (فاعل)؛ لأنه يريد به ما أراد بفاعل من إيقاع الفعل، إلا أنه يريد أن يحدّث عن المبالغة. فما هو الأصل الذي عليه أكثر هذا المعنى: (فَعُولٌ، وَفَعَالٌ، وَمَفْعَالٌ، وَفَعِلٌ)، وقد جاء (فَعِيلٌ)؛ كرحيمٍ وعليمٍ وقديرٍ وسميعٍ وبصيرٍ؛ يجوز فيهن ما جاز في (فاعل) من التقديم والتأخير والاضمار والاظهار. لو قلت: (هذا ضروبٌ) (رؤوس الرجال وسوقَ الابل) على (و ضروبٌ سوقَ الإبل في الفعل) (سيويوه، ١٩٧٧ م: ج ١: ١١٠، ١١٥).

### شرح نص سيويوه

إنّ معنى قول سيويوه: (و أجزوا اسم الفاعل إذا أرادوا أن يبالغوا في الأمر مجراه إذا كان على بناء (فاعل)؛ لأنه يريد ما أراد بفاعل من إيقاع الفعل) هو: (قاسوا اسم الفاعل الدال على المبالغة نحو: (فَتَالٌ) و(ضَرَابٌ) في العمل على اسم الفاعل العامل؛ أي: قاسوا أبنية المبالغة في العمل على اسم الفاعل العامل؛ لأن المتكلم يقصد بالمبالغة إيقاع الفعل؛ أي: إيقاع الحدث؛ أي: يقصد إعمال بناء المبالغة. فأبنية المبالغة محمولة على أصلها الذي هو اسم الفاعل. والمهم أنّ سيويوه كان يغور في النص، ويتعمق فيه لاستخراج المعنى المقصود، فها هو في نصه المتقدم يتعمق في بيان قصد المتكلم من استعماله أبنية المبالغة، فهو يلاحظ مالا يلاحظه غيره؛ لأنه يبذل من الجهود الذهنية المضنية ما لم يبذله زملاؤه من علماء النحو.

### الثاني: رأى المبرد

لقد اعتقد المبرد أنّ هذا الوزن الذي هو فَعِيلٌ من المتعدي، لازم، وإن أخذ من فعل متعد، فهو صفة مشبهة، وليس للمبالغة؛ قال المبرد متحدثاً عن أبنية المبالغة: "ومن هذه الأبنية (مفعال)، نحو: رجلٌ مضربٌ، ورجلٌ مقتالٌ.... فأما ما كان على (فَعِيلٌ) نحو: رحيمٍ وعليمٍ، فقد أجازته سيويوه النصب فيه، ولا أراه جازماً؛ وذلك أنّ فَعِيلًا إنما هو اسم فاعل من الفعل الذي لا يتعدي فما خرج إليه من غير ذلك الفعل فمضارع له ملحَقٌ (فَعُلٌ) كَرِيمٌ فهو كَرِيمٌ، وشُرْفٌ فهو شَرِيفٌ، وظَرْفٌ فهو ظَرِيفٌ، فما خرج إليه من باب (عَلِمَ وشَهِدَ ورَجِمَ)، فهو ملحَقٌ به" (المبرد، ١٣٩٩ هـ: ج ٢: ١١٣-١١٤).

إذا دققنا النظر في نص المبرد هذا، وجدناه لم يستند إلى السماع بل استند إلى القياس، واستدل به على أنّ عليماً ورحيماً وشهيداً المأخوذة من أفعال متعدية صفات مشبهة؛ لأنه حمل فَعِيلًا من الفعل المتعدي



على (فعليل) من الفعل اللازم، وهذا القياس مفهوم من قوله؛ (فما خرج اليه من غير ذلك الفعل فمضارع له ملحق به)؛ أي: إنَّ نحو (عليم) ملحق بالصفة المشبهة اللازمة نحو (كريم).

الأسلوب الثالث: استعمال وزن (فعليل) دالاً على المبالغة مأخوذاً من فعل لازم، فقد أثبت سيويه أن هذا الوزن عامل أيضاً، وأنكره وزن (فعليل) المأخوذ من فعل لازم قسمين: قسم لم يدل على المبالغة وهذا لم يجز سيويه إعماله، وحكم بأنه لازم نحو: ظريف وشريف ونيل. وقسم يدل على المبالغة، وهذا هو الذي أجاز سيويه إعماله لدلالته على المبالغة بتكرير الحدث، ولأنَّ فعلاً هذا محمول عن (فاعل) أي: إنَّ فاعلاً حُوِّلَ الى فعليل، فكليل مبالغة (كأل) وحول عنه (الرضي، ١٩٧٨م: ج ٣: ٤٢١-٤٢٢).

### الأمر الثالث: معنى البيت

أعيد كتابة البيت الذي استشهد به سيويه ليسهل على القارئ الكريم مقارنة المعنى الذي استفاده سيويه، بالمعنى الذي استفاده المبرد: قال ساعدة بن جُوَيْية:

حتى شأها كليلٌ موهناً عمِلٌ      باتت طراباً وبات الليل لم ينم

### معاني المفردات

حتى: الى أن، شأها: ساقها اليه، وجعلها تأتي نحوه، والضمير يعود الى البقر أو الحمر الوحشية، وذهب السكري الى أن (شأها) مقلوب (شاءها)، ومعناه: هيجها، وأسرها، (البغدادى، ١٩٧٨م: ج ٦: ٣٢٦).

كليلٌ: تعبٌ، مُتعبٌ، وهو صفة لموصوف محذوف هو (برق)، والتقدير: (برقٌ كليلٌ). وكليل دالٌ على المبالغة فهو مُكَلِّ مُتعبٌ لليل ومُرَهقٌ له بكثرة تكرار لمعانه وبروقه.

المتوهنٌ: نحوٌ من نصف الليل، وقيل: هو بعد ساعة منه. (ابن منظور، مادة (وهن)).

عمِلٌ: كثير العمل، دائم العمل، يكرر لمعانه باستمرار، فهو دال على المبالغة أيضاً، باتت:

قضت البقر والحمر تلك الليلة.

طراباً: أي: في حالة طرب وفرح واستنثار بالكأ الذي سينبت غداً بسبب المطر.

بات الليل: قضى البرق تلك الليلة ساهراً مستمراً في لمعانه دون انقطاع، فلم ينم، ولم يهدأ حتى الصباح.

**ثانياً: معنى البيت كما فهمه سيويه**

إنَّ هذه الحيوانات (البقرأ والحُمُر الوحشية) كانت تعاني من جوع وعطش شديدين، وبقيت على هذه الحالة الى أن ظهر من بعيد برق قوي مستمر يبشر بالمطر الذي ينبت الزرع، فساقها هذا البرق مشتاقه اليه، وتوجهت نحوه، طمعاً في الكأ الذي سَيُنْبُتُ غداً بسبب المطر، وقد استمر هذا البرق يومض، ويرق طيلة تلك الليلة الى الصباح، فأتعَبَ البرقُ الليلَ بوميضه ولمعانه المتكرر المستمر حتى الصباح، فكأنه كان يضارع الليل؛ لأنه كلما أعاد الليلُ ظلامه أزاله البرقُ بنوره، وقد أرى تكرار هذا الصراع الى أن تَعَبَ الليلُ، وأحسَّ بالإرهاق والإعياء، فأتعَبَ البرقُ الليلَ وأكلَهُ، وانتصر عليه، بظهور نور الصباح، وهرب الليل منكسراً مندمجاً.

أما هذه الحيوانات، فقد قضت تلك الليلة طراباً مستبشرة بالكأ الذي سيخرج غداً بسبب الغيث.

**الموارد البلاغية التي لاحظها سيويه في البيت****المورد الأول**

إسناد السَّوْق الى البرق؛ في قوله: (شأها كليل) أي: (ساقها برقٌ كليل) أو (جعلها البرق تشتاق اليه).

**المورد الثاني**

إسناد الإتعاب الى البرق: أي إسناد إتعاب الليل الى البرق؛ في قوله: (شأها كليلٌ مُوهناً) أي: (ساقها برقٌ مستمرٌ أكلٌ وأتعَبَ الليل). فالمتعَبُ المكَلُّ هو البرق، وهو فاعل الأكلال.

**المورد الثالث**

إيقاع الاتعاب على الليل؛ لأنه اعتبر (توهناً) مفعولاً به ل (كليل).

في قوله: (شأها كليلٌ مُوهناً)؛ أي: (ساقها برقٌ مستمرٌ أكلٌ الليلَ وأتعبه)؛ فالمتعَبُ؛ أي: الذي وقع عليه الاتعاب والاكلال، هو الليل. وهذا نوع من أنواع المجاز العقلي. نحو قولك: (أتبعَتَ يومك)، و(أجريتُ النهار).

**المورد الرابع**

إسناد عدم النوم، أي: إسناد السَّهَر الى البرق؛

في قوله: (و باتَ الليلَ لم ينم)؛ أي: (بات البرقُ الليلَ ساهراً)

### المورد الخامس

لقد اعتبر بعض النحاة لفظ (كليل) مستعمل مكان لفظ (مُكَلِّ) لذلك فني (كليل) استعارة تصريحية، قال الشمي: "إطلاق (كليل) الذي هو حقيقة في اسم الفاعل الثلاثي المجرد على اسم الفاعل الثلاثي المزيد المهمزة، وهو مجاز في اللفظ" (الشمي، ١٣٠٥ هـ؛ ج ٢: ١٤٧).

### المورد السادس

إسناد الطرب الى الحيوانات، في قوله: (باتت طراباً) فوصفها بأنها تطرب، والطرب خاص بالانسان.

### المورد السابع

إسناد البيت الى البرق في قوله: (و بات الليل) أي؛ (و بات البرق الليل). وهذا يعني أنّ البيت كله مبني على المجاز. هكذا تذوق سيويه هذا البيت، ففهمه فهماً صحيحاً لذلك قدمه على القاعدة. هذه البيت، ففهمه فهماً صحيحاً لذلك قدمه على القاعدة. هذه هي أسلوبية سيويه في تعامله مع النصوص البليغة التي خالفت القواعد والأقيسة المطردة، فقد رأيناه عن كذب كيف سن قاعدة استناداً لبيت بليغ عارض القاعدة الثابتة المطردة. فأثبت العمل لوزن (فعيل) الدال على المبالغة.

### معنى البيت كما فهمه أبو العباس المبرد

إنّ هذه الحيوانات (البقر أو الخُمُر الوحشية) كانت تعاني من جوع وعطش شديدين، وبقيت على هذه الحالة الى أن ظهر من بعيد برق ضعيف يبشر بالمطر الذي ينبت الزرع، فساقها هذا البرق اليه، وتوجهت نحوه طمعاً في الكأ الذي سينبت غداً بسبب المطر، وقد استمر هذا البرق يومض، ويبرق طيلة تلك الليلة الى الصباح. أما هذه الحيوانات، فقد قضت تلك الليلة طراباً مستبشرة. بالكأ الذي سيخرج غداً بسبب الغيث.

الحق أنّ القاعدة أو القياس النحوي قد يرتبط ارتباطاً مباشراً بمعنى النص الذي قصده المتكلم، ولاشك أنّ المتكلم عربي فصيح بليغ؛ لأنه لا يستشهد إلا بكلام العربي الفصيح، إذا كان كلامه فصيحاً، لذلك ينبغي على العالم الذي يتصدى لدراسة النص الفصيح بغية الاستشهاد به في التقعيد، ينبغي عليه أن يفهم المعنى كما أراده صاحبه، وأن يهتم بما فيه من موارد بلاغية؛ لأنّ

أهمية البلاغة في النص الأدبي أمر معلوم ومجمع عليه، فالبلاغة تشكل القسم الأعظم من الخيال الأدبي، لذلك فالفرق بين فهم سيبويه للبيت الشاهد، وفهم المبرد له يتمثل في الأمرين التاليين:

### الأمر الأول

أنَّ هذا المعنى الذي فهمه المبرد يحذف من البيت ثلاثة موارد بلاغية من مجموع الموارد السبعة التي اعتبرها سيبويه، وهي:

### الأول

إسناد الإتيان إلى البرق. الثاني: استعمال (كليل) مكان (مكل). الثالث: إيقاع الإتيان على الليل، لأنَّ المبرد اعتبر (موهنًا) ظرف زمان منصوباً على الظرفية. و العجيب أنَّ ابن هشام في نضه التالي قدم الاستعمال الحقيقي على الاستعمال المجازي علماً بأنَّ علماء البلاغة مجمعين على أنَّ المجاز أبلغ من الحقيقة، قال ابن هشام متحدتاً عن رأي سيبويه: " واعتُذر عن سيبويه بأنَّ كليلاً بمعنى مُكلّ، وكأنَّ البرق يكلُّ الوقتَ بدوامه فيه كما يقال: (أتعبتَ يومك)، أو بأنه إنما استشهد به على أنَّ فاعلاً يعدلُّ إلى فعليل للمبالغة، ولم يستدل به على الإعمال، وهذا أقرب، فإنَّ في الأول حَمَلَ الكلام على المجاز مع إمكان حمله على الحقيقة" (ابن هشام، بلاغات: ج ٢: ٤٣٥).

واضح أنَّ ابن هشام عني بالأول استعمال (كليل) بمعنى (مُكلّ)، وهذا استعمال مجازي، وعني بالثاني العدول بـ (فاعل) إلى (فعليل)، لأجل المبالغة، وهذا استعمال حقيقي، فمعنى كلامه أنه إذا أمكن حمل الكلام على الحقيقة، فلا يجوز أن يحمل على المجاز. وهذا يعني أنَّ ابن هشام من علماء النحو الذين لايهتمون بالمعاني البلاغية، ولا يرون لها أثراً في الاستشهاد النحوي خلافاً لمنهج سيبويه.

### الأمر الثاني

#### الفرق بين المعنيين: العميق والسطحي

قال أبو نصر هارون بن موسى مبيناً فساد المعنى الذي فهمه ابوالعباس المبرد ومن تبعه: "زعم الراد على سيبويه أنَّ (موهناً) وقت من الليل، ولو كان ظرفاً لوصف البرق بالضعف في لمعانه، وإذا كان بهذه الصفة، فكيف يسوقها، وهو لا يدل على المطر؟ ولكنَّ البرق إذا تكرر في لمعانه، واشتد، ودام، دلَّ على المطر، وساق وأتعب الموهن في ظلمته؛ لأنه كلما هبَّ ذهب الظلمة، ثم ترجع إذا فتر البرق، ثم تذهب إذا لمع، فلذلك عدِّي الشاعر الكليل إلى الموهن" (الجرطي القرطبي، ١٩٨٤ م: ٨٠). قال التبريزي

مفنداً المعنى التأويلي الذي استفاده المبرد: "و هذا التأويل ليس بقوي، لأن صدر البيت وعجزه يتنافيان، فانه قال: (و بات الليل لم ينم) فلا يمكن أن يوصف بأنه قال: في بعض أوقات الليل، وقال (عمل) وهو يدل على كثرة العمل" (البغدادي، بلاتا: ج ٣: ٤٥٠).

و كل ذلك يدل على أنّ المبرد لم يعط هذا البيت البليغ حقه من الدقة والتذوق البلاغي اللذين أعطاهما إياه سيويه، لذلك يمكن أن نقول: إنّ اعتراضه على سيويه هو اعتراض على الفهم الصحيح المصحوب بالتذوق الأدبي، وعلى ترجيح السماع الفصيح على القاعدة، ثم إننا حين تقارن عمل سيويه في هذا البيت البليغ بعمل المبرد في البيت نفسه، نجد سيويه قد أخلص في أداء وظيفته التي نصب نفسه لأدائها لعالم محقق، إذ لم يدخر جهداً ذهنياً في التحقيق والتأمل للوصول الى المعنى الذي قصده الشاعر، ولم يكتف بالفهم السطحي. بل أخذ بلاغة البيت بنظر الاعتبار، ففسر البيت تفسيراً بلاغياً بدوق سليم.

أما المبرد، فلم يكلف نفسه عناء الغور في النص لاستخراج المعنى الأنسب الذي قصده الشاعر. بل اعترض على سيويه، ولم يجزما أحازه سيويه، لأنه لم يفهم البيت كما فهمه سيويه، ولقد كان سهلاً على سيويه أن يخرج البيت على أنه موافق للقياس وأنّ كليلاً صفة مشبهة لاتدل على المبالغة، ولا تعمل، فيريح نفسه من عناء التأمل، واستخدام الذوق البلاغي الأدبي.

و إنّ كثيراً من علماء النحو تبعوا المبرد، وخالفوا سيويه.

قال أبو سعيد السيرافي: "قال النحويون: هذا غلط من سيويه بين، وذلك أنّ الكليل هو البرق، ومعناه: البرق الضعيف. وكذا (رجل كليل) إذا كان ضعيفاً، وفعله لا يتعدى، كقولك: كلّ، تكلّ، ولا تقول: (كلّ زيداً عمراً)، والموهن: الساعة من الليل، فهو ينتصب على الظرف، وإنما يصف حماراً وأتاناً، و(شأها) في المعنى: شاقها، يعني: (شاق هذه الحمير هذا البرق الضعيف في هذه الساعة من الليل حين نقلها من الموضع الذي كانت فيه، الى الموضع الذي كان منه البرق)" (السيرافي، ٢٠ م: ج ١: ٤٤٣). ولاشك أنّ نسبة الغلط لما هو صحيح. أمر مؤسف حقاً.

لكنّ المحققين من علماء النحو أيدوا رأي سيويه وفيما يلي أذكر بعضهم:

١. أحمد بن محمد بن ولّاد الذي ألف كتاباً استدلالياً ردّ فيه جميع المسائل التي أخذها أبو العباس المبرد على سيويه، واسم هذا الكتاب: (الانتصار لسيويه على المبرد)، وقد حُقق في قسم اللغة العربية، جامعة طهران. رسالة دكتوراه؛ ٢) أبو إسحاق الزجاج (البغدادي، ١٩٧٨ م: ج ٦:

(٣٢٥؛ ٣) أبو سعيد السيرافي، شارح كتاب سيبويه (السيرافي، ٢٠١٢ م: ج ١: ٤٤٣-٤٤٤؛ ٤) أبو عصفور (ابن عصفور، بلاتا: ج ١: ٥٦١-٥٦٢؛ ٥) ابن مالك (ابن مالك، ١٩٩٠ م: ج ٣: ٨١؛ ٦) التبريزي (البغدادي، بلاتا: ج ٣: ٤٥٠؛ ٧) الجريطي القرطبي (الجريطي، ١٩٨٤ م: ٨١؛ ٨) الشيخ خالد الأزهرى (الأزهرى، بلاتا: ج ٢: ٦٨؛ ٩) ابن يعيش (ابن يعيش، بلاتا: ج ٦: ٧٣).  
و حينما نطالع بدقة وتأمل تأييدات هؤلاء العلماء المحققين نخرج بأنهم احتجوا الصحة رأى سيبويه في جواز إعمال وزن الدال على المبالغة، بالأدلة التالية:

#### الدليل الأول: صحة المعنى

إنّ المعنى الصحيح للبيت الذي استشهد به سيبويه إنما يتم إذا كانت كلمة (موهنأ) مفعوله لكلمة (كليل) قال التبريزي: "و طعنوا في هذا البيت من جهة استشهاده، وقيل: (كليل) بمعنى (كأل) من (كلّ) (يكلّ)، فانه لازم و(موهنأ) منصوب على الظرف. وهذا التأويل ليس لقوي؛ لأنّ صدر البيت وعجزه يتنافيان، فانه قال: (و باتّ الليل لم ينم)، فلا يمكن أن يوسف بأنه قال: (في بعض أوقات الليل، وقال: عمِلٌ)، وهو يدل على كثرة العمل" (البغدادي، بلاتا: ج ٣: ٤٥٠).  
و استدلل الجريطي القرطبي على فساد المعنى الذي فهمه المبرد بمثل ما استدلل به التبريزي (الجريطي، ١٩٨٤ م: ٨١). وتبعهما في ذلك البغدادي فقال مختصراً: " وهذا الرد غير صحيح؛ إذ لو كان (كليل) كما قال، لم يقل (عملٌ)، وهو الكثير العمل، ولا وصفه بقوله؛ وباتّ الليل لم ينم" (البغدادي، ١٩٧٨ م: ج ٦: ٣٢٤). وقد أشرت الى ذلك فيما سبق.

#### الدليل الثاني: السماع

استشهدا ابن مالك بالبيت التالي محتجاً لصحة رأى سيبويه؛ فقال: "ومما يحتجّ له به قول الشاعر:  
فَتَاتَانِ أَمَّا مِنْهُمَا فَشَبِيهَةٌ هَلَالًا وَأَخْرِي مِنْهُمَا تُشْبَهُ الْبَدْرَا  
فأعمل (شبيهة) أنثى (شبيهه) مع كونه من (أشبهه) ك (نذير) من (أنذر)، وإذا ثبت إعمال (فعل) من (أفعل) مع قلة نظائره، كان إعمال (فعل) من الثلاثي أولى لكثرتهم" (ابن مالك، ١٩٩٠ م: ج ٣: ٣١).  
لقد ذكر ابن مالك أنّ فعلاً من الثلاثي كثير، ولاشك أنّ كثرته دليل قاطع على جوازه.  
و قال الجريطي القرطبي مستشهداً ببيت آخر: وكما تعدي (الحولي) في قوله:  
فَلَمَّا أَتَى عَامَانَ بَعْدَ انْفِصَالِهِ عَنِ الصَّرْعِ وَاحْلُولِي دِمَائًا يَرُودُهَا  
و هو بمعنى (حلي)، و(حلي) لا يتعدي، كذلك يتعدي (كليل)، ولم يتعد (كأل)، وهو في معناه

إلا في المبالغة" (المجريطي، ١٩٨٤ م: ٨١).

يعنى أنّ كلمة (كليل) في شاهد سيويه هي في معنى اسم الفاعل (كآل) لكنها تزيد على (كآل) في أنها تدل على المبالغة، أما (كآل) فلا يدل على المبالغة، لذلك فهو لا يتعدي، في حين تتعدي كلمة (كليل) لدلالاتها على المبالغة.

#### الدليل الثالث: القياس

لقد وضعت يدي على قياسين استدلّ بهما العلماء على صحة رأى سيويه، وهما:  
الأول: استدلّ به ابن مالك؛ وهو أنه بعد أن أثبت عن طريق السماع إعمال (فعليل) من (أفعل)، حمل عليه فعيلًا من الثلاثي، فقال: "و إذا ثبت إعمال (فعليل) من (أفعل) مع قلة نظائره، كان إعمال (فعليل) من الثلاثي أولى لكثيرته" (ابن مالك، ١٩٩٠ م: ج ٣: ٨١).

القياس الثاني: استدلّ أبو إسحاق الزجاج وتبعه الشيخ خالد الأزهرى على صحة رأى سيويه بقياس وزن (فعليل) من الثلاثي في العمل على اسم الفاعل العامل؛ قال أبو إسحاق في الحجة لسيويه على الفعل، فلما أعملوا ضروباً، لأنه بمعنى (ضارب)، وجب أن يكون (فعليل) مثله، قال: ومنه: (قدير)، وسيويه أورد هذا على أنه للمبالغة في (كآل) (البغدادي، ١٩٨٨ م: ج ٦: ٣٢٥). وقال ابن يعيش: "و الصحيح ما ذهب اليه سيويه، وهو القياس، لأنّ صفات المبالغة إذا كانت معدولة جاز أن تتعدي، فمن ذلك (فعلول ومفعول وفعال)، فهكذا سبيل (فعليل)" (ابن يعيش، بلاتا، ج ٦: ٧٣).

أسلوب عبد القاهر الجرجاني في معاجلته للأساليب البليغة المخالفة للقواعد الثابتة المستنبطة من السماع المطرد: يبدو أنّ عبد القاهر الجرجاني سار على نهج سيويه في تذوق النص الأدبي، والتدقيق فيه كي يصل الى المعنى المراد، ولاتهمه مخالفته القاعدة. بل كان يقيم للنص الأدبي الفصيح وزناً يرقى الى أن يكون وحده قاعدة، فالمعنى عنده هو الأصل، وهو الأساس.

و لقد كانت تلك المعاني التي يستخرجها من باطن النص من اللطافة والظرافة بحيث لا يمكن تفهيمها لكل مستمع دارس. بل تحتاج الى مستمع يتمتع بالذوق السليم ويمتلك قريحة أصيلة، قال عبد القاهر: "إنّ المزايا التي تحتاج أن تُعلّمهم مكانها، وتُصوّر لهم شأنها أمورٌ خفية، ومعان روحانية، أنت لا تستطيع أن تُنبّه السامع لها، وتحدّث له علماً بها حتى يكون مُهيئاً لإدراكها، وتكون فيه طبيعةً قابلة لها، ويكون له ذوق

وقريحة يجد لهما في نفسه إحساساً" (عبد القاهر، ١٩٧٨ م: ٤٢٠).

و قال ذاكراً التذوق بالملكة التي يجب أن يمتلكها الناقد: "وأنت إذا نظرت الى الشعر من جهته الخاصة به، وذقته بالحاسة المهيأة لمعرفة طعمه، لم تشكّ في أن الأمر على ما أشرت لك اليه" (عبد القاهر، ٢٠٠٩: ٢٣٠).

و قال، أيضاً، متحدثاً عن أنه ليس جميع المخاطبين من الدراسين يدركون جمال المواضيع البلاغية كالحجاز، وطيب تثيرها في النفوس. بل الذي يدرك ذلك إنما هو صاحب الحس البلاغي المرهف، والتذوق الأدبي السليم، قال: لا يجهل المزية فيه إلا عديم الحس، ميت النفس، وإلا من لا يكلم؛ لأنه من مبادي المعرفة التي من عدمها لم يكن للكلام معه معنى" (عبد القاهر، ١٩٧٨ م: ٣٣٠).

و أضرب، فيما يلي، مثلاً لمنهجه هذا: لقد أورد عبد القاهر أبياتاً منها البيت التالي:

قال المتنبي (العكبري، ١٩٧١ م: ج ١: ٣٣٤):

أَسَدٌ دُمُ الْأَسَدِ الْهَزِيرِ خِضَابُهُ مَوْتُ قَرِيصُ الْمَوْتِ مِنْهُ تَرَعُّدُ

لاشك أن الناظر في هذا البيت يحكم دون توقف بوجود التشبيه البليغ فيه لوجود المشبه والمشبه به، وحذف الوجه والأداة؛ لأن المشبه، وهو المبتدأ، مقدر، والتقدير: (هو أسد) أو (الممدوح أسد)، ولا شك أن وجود طرفي التشبيه يقضى بوجود التشبيه، لا الاستعارة؛ لأن القاعدة التي أثبتها علماء البلاغة وأقرها عبد القاهر تقضى بعدم وجود الاستعارة في هذا البيت لوجود طرفي التشبيه، فشرط الاستعارة وجود طرف واحد؛ قال عبد القاهر مقرأ هذه القاعدة ومعرفاً الاستعارة: "فالاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء، فتدع أن تفصح بالتشبيه، وتظهره، وتجيء الى اسم المشبه به، فتعيه المشبه وتجره عليه.... وذلك حيث تسقط ذكر المشبه من الشيعين، ولا تذكره بوجه من الوجوه، كقولك: رأيت أسداً" (عبد القاهر، ١٩٧٨ م: ٥٣-٥٤).

لكن عبد القاهر لم يكتفِ بالنظرة السطحية لبيت المتنبي. بل تأمل فيه، وحلله تحليلاً ذوقياً أسلوبياً آخذاً قصد المتكلم بنظر الاعتبار، ثم أنهى به التحقيق والتحليل الى إثبات وجود الاستعارة في هذا البيت، مع وجود طرفي التشبيه خلافاً للقاعدة. وبذلك جمع في الاستعارة بين طرفي التشبيه غير مهتم بالقاعدة؛ لأنه رجع عليها الذوق السليم والمعنى المقصود. ولكي تتأكد من ذلك أنقل لك تحليل عبد القاهر لهذا البيت؛ قال عبد القاهر: "و قد يكون في الصفات التي تجيء في هذا النحو والصلوات التي توصل بها ما يحتل به تقدير التشبيه فيقرب حينئذ من القبيل الذي تطلق عليه الاستعارة من بعض الوجوه وذلك مثل قوله:

أَسَدٌ دُمُ الْأَسَدِ الْهَزِيرِ خِضَابُهُ مَوْتُ قَرِيصُ الْمَوْتِ مِنْهُ تَرَعُّدُ

لا سبيل لك الى أن تقول: (هو كالأسد، وهو كالموت) لما يكون في ذلك من التناقض؛ لأنك إذا



قلت: (هو كالأسد) فقد شبهته بجنس السبع المعروف، ومحال أن تجعله محمولاً في الشبه على هذا الجنس أولاً، ثم تجعل دم الهزير الذي هو أقوى الجنس خضاباً يده؛ لأنَّ حملك له عليه في الشبه دليل على أنه دونه، وقولك بعد: (دم الهزير من الأسود خضابه) دليل على أنه فوقها. وكذلك محال أن تشبّهه بالموت المعروف، ثم تجعله يخافه، وترتعد منه أكتافه" (عبدالقاهر، ٢٠٠٩ م: ٢١٤).

لقد صرح عبدالقاهر في نصه المتقدم بأنَّ القول بوجود تشبيه بليغ في البيت ينتهي بنا الى حصول التناقض في معناه؛ لأن تشبيه الممدوح بالأسد يعنى أنه دون هذا الأسد في الشجاعة، وهذا يخالف وصف الشاعر للمدح بأنَّ دم الأسد الهزير خضابه؛ لأنَّ الذي يتصف بهذه الصفة يجب أن يكون فوق جميع الأسود في الشجاعة والبأس، لادونها.

و بعد ذلك ذكر بيتين للبحرّي مستشهداً بثانیهما لتثبيت رأيه وبيان صحة نظريته، فقال: " وكذا قوله:

سحابٌ عَداني سَيْلُهُ وهو مُسْبِلٌ      و بحرٌّ عَداني قَيْضُهُ وهو مُفْنَعُمٌ  
و بدرٌ أضاءَ الأرضَ شرقاً ومغرباً      و موضعٌ رحلي منه أسودٌ مظلمٌ

إن رجعت فيه الى التشبيه الساذج، فقلت: (هو كالبدر)، ثم جئت تقول: (أضاء الأرض شرقاً ومغرباً، وموضع رحلي مظلم، لم يضيء به)، كنت كأنك تجعل البدر المعروف بليس الأرض الضياء، وبمنعه رحلك، وذلك محال. وإنما أردت أن تثبت من الممدوح بديراً بكلام بعيد من هذا النظم، وهو أن يقال: هل سمعت بأنَّ البدر يطلع في أفق، ثم يمنع ضوءه موضعاً من المواضع التي هي معرضة له، وكائنة في مقابلته حتى تری الأرض الفضاء قد أضاءت بنوره، وفيما بينها قدر رحل مظلم يتحاني عنه ضوءه؟ ومعلوم بعد هذا من طريقة البيت، فهذا النحو موضوع على تخييل أنه زاد في جنس البدر واحداً له حكم وخاصة لم تعرف. وإذا كان الأمر كذلك، صار كلامك موضوعاً لا لإثبات الشبه بينه وبين البدر، ولكن لإثبات الصفة في واحد متجدد حادث من جنس البدر لم تعرف تلك الصفة للبدر... فاذا خرج الاسم الذي يتعلق به التشبيه من أن يكون مقصوداً بالاثبات، تبين أنه خارج عن الأصل الذي تقدم من كون الاسم لإثبات الشبه.

فالبحرّي في قوله: (و بدرٌ أضاء الأرض) قد بنى كلامه على أنَّ كون الممدوح بديراً أمراً قد استقر، وثبت، وإنما يعمل في إثبات الصفة الغريبة، والحالة التي هي موضع التعجب... فانه وإذا بان بما ذكرت أنَّ هذا الجنس إذا قلبت عن سره، ونقرت عن خبيئه فمحصوله أنك تدعى حدوث شئ هو من الجنس المذكور إلا أنه اختص بصفة غريبة، وخاصة بعيدة لم يكن يتوهم جوازها على ذلك الجنس، كأنك تقول: ما كنا تعلم أنَّ ههنا بديراً هذه صفتها، كان تقدير التشبيه

فيه نقضاً لهذا الغرض؛ لأنه لا معنى لقولك: أشبه ببدر حدث خلاف البدر ما كان يعرف. وهذا موضع لطيف جداً، لا تنتصف منه إلا باستعانة الطبع عليه، ولا يمكن توفية الكشف فيه حقه بالعبادة لدقة مسلكه" (عبدالقاهر، ٢٠٠٩ م: ٢١٤-٢١٥).

إنَّ عبدالقاهر يرى أنَّ البحري لم يرد أن يشبه الممدوح ببدر صفته أنه يضيء جميع أنحاء الأرض، ويستثني موضع رحله، لا يضيؤه؛ لأنه إذا قصد ذلك، وجب أن يكون قد جعل البدر المعروف موصوفاً بصفة ليست فيه، فالقصد ليس إثبات التشبيه. بل القصد هو إثبات هذه الصفة العجيبة الغريبة لهذا البدر الذي هو الممدوح. فكون الممدوح بديراً أمر ثابت، والمرد إثبات هذا الصفة له فقط. فالمقصود الاستعارة لا التشبيه.

و الذي يبدو أنَّ عبدالقاهر يريد أن يقول: إنَّ القاعدة تبقى قائمة. لكنَّ المعنى العميق الذي لا ينال، ولا يدرك إلا بالذوق السليم له فصل الخطاب، لذلك على الناقد أن يعطي النص الأدبي حقه من التأمل والتدقيق، وأن لا يكتفي بالمعنى الظاهر، فاذا اتفق المعنى المراد مع التشبيه البليغ، أجرى القاعدة، أما إذا لم ينسجم المعنى المقصود مع التشبيه البليغ. بل حصل في المعنى تناقض، أو اضطراب وخلل، خالف القاعدة وحكم بوجود الاستعارة مع وجود طرقي التشبيه، لأنَّ البلاغة ليست مجرد قواعد. بل هي ذوق وقواعد.

و أغلب الظن أنَّ الذي سنَّ هذا المنهج هو عبدالقاهر الجرجاني، وقد تلقي هذا المنهج منه العلماء المحققون كفخرالدين الرازي (الرازي، ٢٠٠٤ م: ١٤٨)، وأبو يعقوب السكاكي (السكاكي، ١٩٨٧ م: ٣٧١)، والخطيب القزويني (القزويني، ١٩٨٥ م: ٢٨٩) وبهاء الدين (السبكي، ٢٠٠٣ م: ج ٢: ٣١). وهذا لا يعني أنَّ هؤلاء متأثرون بعبد القاهر بكل ما أمتاز به أسلوبه الذي انفرد به بل إنَّ منهم من استخدم مصطلحات غريبة عن البحوث البلاغية الذوقية.

### النتيجة

لقد تمخض هذا المقال عن النتائج التالية:

- أنَّ أسلوب سيوييه في تعامله مع السماع البليغ هو السعي الى الوصول الى المعنى المقصود بتذوقه أديباً وبلاغياً، فاذا خالف القياس المطرد لم ينسبه الى الشذوذ. بل يجعله قاعدة وقياساً، فالمعنى هو أساس عمله.
- أنَّ عدداً غير قليل من علماء النحو قد خالفوا منهج سيوييه هذا، وتوقعوا على القواعد، واعتبروها الحكم الفصل.

□ أن هؤلاء المخالفين لم يكلّفوا أنفسهم عناء التدقيق للوصول الى المعنى الأوضح والأبلغ، ولم يهتموا ببلاغة البيت.

□ أن عبدالقاهر الجرجاني متأثر بأسلوب سيويه؛ لأنه كان يتعامل مع السماع البليغ كتعامل سيويه.

## المصادر

- الأعلم الشنتمري (٢٠٠٥)، النكت في تفسير كتاب سيويه، تحقيق يحيى مراد، بيروت: دارالكتب العمليه، ط ١.
- البغدادى عبدالقادر بن عمر (بالاتا)، خزانه الأدب ولب لبان لسان العرب، بيروت: دار صادر، ط ١.
- البغدادى (١٩٧٨ م)، شرح أبيات المغني، تحقيق عبدالعزيز رباح، دمشق: دارالمأمون.
- ابن جنى، أبو الفتح عثمان (١٩٥٢ م)، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، بيروت: دارالهدى، ط ٢.
- ابن جنى، أبو الفتح عثمان (١٩٥٤ م)، المنصف شرح تصريف المازني، تحقيق إبراهيم مصطفى وعبدالله أمين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط ١.
- ابن عصفور الأشبيلي (١٩٧١ م)، شرح جمل الزجاجي، تحقيق صاحب أبو جناح.
- ابن مالك جمال الدين (١٩٩٠ م)، شرح التسهيل، تحقيق عبدالرحمن السيد ومحمد بلوي المختون، القاهرة: هجر للطباعة والنشر، ط ١.
- ابن هشام جمال الدين الانصاري (بالاتا)، مغني اللبيب عن كتب الأعريب، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، القاهرة: مطبعة للديني.
- ابن ولاد (١٣٨١)، الانتصار لسيويه، تحقيق عدنان لاجوردي.
- الأزهري، خالد (بالاتا)، شرح التصريح على التوضيح، بيروت: دارالفكر.
- الرازي فخرالدين (٢٠٠٤ م)، نهاية الایجاز في دراية الاعجاز، تحقيق نصرالله حاجي مفتي، بيروت: دار صادر، ط ١.
- الرضي الأسترابادي (١٩٧٨ م)، شرح الرضي على الكافية، تحقيق يوسف حسن عمر، جامعة قارونوس.
- السبكي بماءالدين (٢٠٠٣ م)، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق عبدالحميد هندراوي، بيروت: للمكتبة العصرية، ط ١.
- السكاكي أبو يعقوب (١٩٨٧ م)، مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٢.
- سيويه (١٩٧٧ م)، الكتاب، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ط ١.
- السيرافي، أبو سعيد (٢٠٠٨ م)، شرح كتاب سيويه، تحقيق أحمد حسن مهدي و علي سيد علي، بيروت: دارالكتب العلمية، ط ١.
- السيرافي، أبو سعيد (١٩٣٦ م)، أخبار النحويين البصريين، تحقيق فريتس كرنكو، بيروت: المطبعة الكاثو ليكية، ط ١.
- السيوطي، جلال الدين (١٩٧٩)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: دارالفكر، ط ٢.
- الشمسي أبو العباس (١٩٧١ م)، المنطق من الكلام على مغني ابن هشام، القاهرة.
- عبدالقاهر الجرجاني (٢٠٠٩ م)، أسرار البلاغة، تحقيق ه. رزير، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ١.
- عبدالقاهر الجرجاني (١٩٧٨ م)، دلائل الاعجاز، تحقيق السيد محمد رشيد رضا، بيروت: دارالمعرفة.
- العكبري أبوالبقاء (١٩٧١ م)، التبيان في شرح الديوان، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي.
- الهذليون (١٩٩٥ م)، ديوان الهذليين، القاهرة: دارالكتب المصرية، ط ٢.

## ارتباط سبک نحوی سیبویه و سبک بلاغی عبدالقاهر

## با سماع بلیغ مخالف با قیاس

محمد ابراهیم خلیفه شوشتری\*

دانشیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه شهید بهشتی تهران

## چکیده

علمای نحو پس از فارغ شدن از دستورگذاری زبان عربی با کاربردهای فصیح مواجه شدند که با قواعد نحو مخالف است. لذا علمای نحو نسبت به تعامل با این کاربردها به دو گروه تقسیم شدند، گروهی از آنها آسان‌ترین راه را انتخاب کردند و به خودشان زحمت ندادند. از این‌رو شذوذ را به آنها نسبت داده‌اند. اما گروه دوم وظیفه خود را به خوبی انجام داده و دقت لازم را داشته‌اند. این گروه موارد بلاغی این کاربردها را در نظر گرفتند و به استناد آنها قواعد جدیدی به وجود آوردند. الگوی آنها در مباحث عالی نحو سیبویه است. اما در مباحث عالی بلاغی عبدالقاهر جرجانی الگوی علمای بلاغت به شمار می‌آید؛ زیرا دقت لازم را داشت و به کاربرد بلیغ گرچه مخالف قاعده بود، اهمیت می‌داد و روش سیبویه را دنبال می‌کرد. این مقاله به طور مختصر در پی آن است تا این امر را به اثبات برساند که سیبویه و عبدالقاهر جرجانی هر کدام در تخصص خود ذوق بلاغی را به کار می‌برند و به کاربردهای بلیغ اما مخالف قواعد تا این حد اهمیت می‌دهند که با استناد به آنها قواعد جدیدی به وجود می‌آورند.

**کلیدواژه‌ها:** سیبویه؛ عبدالقاهر؛ سماع؛ قیاس.